بين (دغف) وصعلوك ومغفل ... !

أبداً يظل الترام لمنظاري موضع فرجة لا تنعد، وذلك أنه ، من ناحية ، ملتقى ضيق يحشر فيه كل ساعة أنماط من الناس فى هذا المضطرب الواسع الذى ندعوه المجتمع ، ثم هو من ناحية أخرى المركب الوحيد الذى أتخذه فى ذهابي إلى مقر عملي وفى أوبتى من هناك ، فما كان لى وقد ضمت الفخر من أطرافه كما يقول مهيار وجمت بين الحسنيين : وظيفة التدريس وحرفة الأدب ، أن يكون لى سيارة ، وبحسبي أن أركب كل شهر أو شهرين مع صديق فى سيارته أو أن أزحم الناس لأتخذ لى موضعاً بشق النفس فى سيارة عامة هى والترام شيء واحد !

كان الترام الجاهد بما يحمل من الخلق يجرى جرى من تقطعت أنفاسه ذات صباح ، وكان بينى وبين موعد الدرس الأول دقائق معدودات ، وكنت لا أفتأ أنظر إلى ساعتى وإنى لضائق بسرعة عقربها بقدر ما أنا ضائق ببطء الترام أخشى أن أتأخر فلا أدرى بماذا أعتذر لتلاميذى ولا كيف أخفى عنهم خجلى . دع عنك « البك الناظر » ونظراته على رأس السلم وغيظه المكظوم الذى لا آمن أن يظل مكظوماً ...

وظللت أدعو الله ألا تفسد الزمارة أو تخرج « السنجة » عن خيوط الكهرباء، أو تتدلى عجوز لتنزل فتزل قدمها، أو يمر رتل من سيارات الجيش فيقف المرور ، أو يدفع القدر أحد الناس إلى حيث يلتهمه الترام . وقضيت لحظة ألية على هذه الحال أسأل الله وأستعجل الكمسارى وأرهف أذنى إلى زمارته وأتلفت نحوه كلما أبطأ فى النفخ فيها

وأبطأ الكمسارى ، والتفتت فإذا شاب « أفندى » يقف على سلم المركبة والكمسارى يرجوه ويتوسل إليه أن ينزل ، فلا يجود عليه ولو بنظرة ؛ ويغلظ له الكمسارى شيئاً فشيئاً ، ولكنه يظل ثبت الجنان منتصب القامة مرفوع الهامة ؛ وأنظر وقد كاد يخنقنى الغيظ ، وينظر الراكبون جميعاً نحو ذلك الأفندى عسى أن يستحى ، فلا يشاء أن يرد أو يلتفت إلى أحد ، ويعود الكمسارى فيلين ويستعطف مبتسماً ابتسامة فيها معنى ذلك الصفاء الذى يسبق العاصفة ويذكّر الأفندى بأن منع الوقوف على السلم قد بات أمراً معلوماً لكل الناس ، ولا حيلة له فى ذلك فهى مشيئة المصلحة والحكومة وعليه وحده المغرم إن تهاون ... ثم إنه ييأس أخيراً فيقابل العناد بالعناد ، ويقسم أن لن يسير الترام إلا إذا نزل ذلك الأفندى « المتشمبط » ... كل ذلك وصاحبنا لا يزداد إلا إصراراً واستكباراً ! ...

ويضج الراكبون ، ويتقدم أحدهم بالرجاء فى رفق إلى ذلك الظريف المتعلق بالترام فيرد عليه بقوله : (موش شغلك يا أفندى) وتجرى على الألسن عبارات الاستنكار والتقريع والتوبيخ ... وهو برغم ذلك مصر كأنه يجاهد فى قضية من قضايا الأوطان ، فلا يعرف فيها معنى الهوان أو الخذلان !

ويأتى صعلوك حافى القدمين ، حاسر الرأس ، فى يده عود ضخم من قصب السكر ، كأنه مدفع لمطاردة طائرات العدو ، وفى جلبابه آثار تمزيق ، كأنه قادم لساعته من معركة ، ويتعلق هو أيضاً بالترام ، فلا يتمالك الناس أنفسهم أن يضحكوا ، على رغم ما كانوا يعانون من ضيق وغيظ !

ويحار الكمسارى بين الصعلوك والأفندى ، فقد أعلن أولهما أنه لن ينزل حتى ينزل الأفندى ، وهو لا يدرى أنه بذلك قد علق الأمر على المستحيل وأصبحت الصبية مصيبتين ؛ وراح يتساءل ذلك الصعلوك فى حدة: لم يطلب إليه وحده النزول ؟ أذلك لأنه «غلبان» ؟ ويصرخ الكمسارى فى وجه الأفندى ضجراً، فيرد عليه أخيراً بقوله «أما مغفل صحيح» ويوقن الكمسارى أن الحرب واقعة لا محالة فيرد عليه بقوله «إذا كنت أنا مغفل تبقى حضرتك دغف» ... ويكتفى الصعلوك بذلك فينزل معتذراً وقد كان كفيلاً أن يحطم رأس الكمسارى بذلك «الترليوز» فى يده لو دعت الحال إلى ذلك

وينفد صبر المغفل فيجذب « الدغف » من كتفيه ويطول النزال ويعظم هول القتال ويتزاحم المتفرجون من المارة ويتعطل الطريق ويضيع نصف الدرس وتنجلى المعركة أخيراً عن هزيمة « الدغف » ... ويمضى الترام وأنا أسأل نفسى أيهما المغفل حقاً وأيهما «الدغف» حقاً وأيهما الاثنان معاً ؟ ولكنى لا أحتاج إلى طويل فكر لأقول إن المغفل لم يفعل ما يستحق من أجله أن ينعت بهذا اللقب ، وإن نعته به من جانب ذلك الأفندى المهذب لهو الغفلة بعينها ؛ ثم أسأل نفسى كذلك أى الرجلين كان أفضل وأكبر فى أعين الناس الصعلوك أم الأفندى ؟ وأيهما إذاً هو الصعلوك حقاً ؟

أولى بنا والله أن نتساءل متى نتعلم النظام قبل أن نتساءل متى نظفر « بالاستقلال التام » .

الغفير